نقد الإختيار والمماثلة

عرض ودراسة لكتاب
المختار من شعر بشار جمع الخالديين
شرح أبى الطاهر التجيبى البرقى

د. أحمد ابراهيم خليل

تعددت ألوان الكتابة الأدبية وصفا وانشاء عند العرب بما لا محل لحصره . وعلى الرغم من امكان تصنيف هذه الكتابات داخل عدة دوائر محددة نرى لكل منها اسلوبه وشخصيته وطابعه المتميز المستمد من اسلوب كاتبه وشخصيته وطابعه الخاص .

وفى مجال النقد الأدبى بالتحديد ، ونقد الشعر — بتحديد أكثر — تعددت الكتب والرسائل الصغيرة والموسوعات الضخمة ، كما تنوعت مناهجها وأساليبها وبين يدى الآن كتاب منها صغير الحجم نوعا ما وان لم يكن قليل الجدوى والقيمة أهرع اليه بين الحين والآخر كلما شاقتنى طريقته فى نقد الشعر تلك التى أسميها (نقد الاختيار والمماثلة) . ويهمنى أن أعرف بهذا الكتاب وأحاول تحليل مادته — بعد عرضه بايجاز ووضع علامة استفهام حول طريقته فى نقد الشعر ، وغايتى من وراء ذلك أن أثير فى نفوسنا نحن المعاصرين الرغبة فى التمرد على تلك النظرة الجامدة التى نعيرها تراثنا النقدى ، ونحاول أن نطبق عليه فكرتنا الشائعة القائلة بأن كل الأمور لا ينبغى أن تتناول تناولا واحدا وأن كل القضايا لا يجب أن تدرس بطريقة واحدة ولعلنا نجد فى منهج هذا الكتاب وطريقته شيئا نافعا من الناحية العملية على الأقل ان لم يكن من الناحية النظرية مساويا لكتب النقد التراثية التى اعترفنا لها بالقيمة والفضل « كالموازنة » و « والوساطة » و «عيار الشاعر» .

والمختار من شعر بشار جمعه الخالديان أبو بكر محمد وأبو عثمان

سعيد ابنا هاشم بن وعلة بن عرام وهما ينتسبان الى قرية « خالدة » من اعمال حلب كانا القائمين على خزانة كتب سيف الدولة الحمدانى ولهما فى الأدب والنقد باع وهما يعدان كذلك من شعراء بلاطه ؟ ولهما غير المختار (الأشباه والنظائر) قام بتحقيقه السيد محمد يوسف ونشره بالقاهرة سنة ١٩٥٨م ٠

وفى اختيارهما منتخبات من شعر بشار دلالتان احداهما تشير الى قيمته بوصفه امام المحدثين ورائدهم فى توليد المعانى وتزيين الصياغة الشعرية ، والأخرى تشى باحساسها العميق بمسؤلية العالم الأمين فى الاحتفاظ بما يجدر الاحتفاظ به من ديوان يرشحه ما يملؤه من شعر ماجن مسف مفعم بالنمزات على الدين والعروبة للضياع المحقق ، وان كان من الثابت أن منها ما هو صحيح النسب الى الشاعر ومنها ما هو منسوب اليه زورا ٠ ومنها كذلك ما قاله الشاعر هازلا وأخذه الناس منه مأخذ الجد ٠ وعلى أى حال فان ما بين أيدى الناس اليوم من دواوين مطبوعة لبشار ترجع الى أصلين : أحدهما مخطوط مفرد غير دقيق يشتمل على جزء من ديوانه الحقيقى المرتب على حروف الهجاء وهو يقف عند حرف الراء فقد قام بنشره الطاهر بن عاشور من تونس ، والآخر قام بجمعه محقق (المختار) من مختلف دواوين الأدب العربى الجامعة القديمة فهو يأخذ قطعة من هنا وبيتا من هنا فما يكاد يزيد ما جمعه على مئتى صحيفة من القطع الصغير ربعها هوامش قلما تعثر على قصيدة كاملة فيها ويصعب أن تثق فى اكتمال هذه القصيدة فلا يبعد أن ينظم بشار أكثر من قصيدة على وزن وروى واحد فيضيع أكثرهما ويبقى أقلهما على السنه الرواة وأقلام الكتاب فيضمهما جامع الديوان باعتبارهما قصيدة واحدة(١) ٠

ومضاهاة سريعة بين الديوانين تكشف عن الاضطراب الشديد الذى منى به تراث ذلك الشاعر المبدع ٠

وشارح المختار أبو الطاهر اسماعيل بن أحمد زيادة الله التجيبى

البرقى من أدبـاء أوائل القرن الخـامس الهجرى تنقـل بين المغرب الأقصى وتونس وصقلية حين كانت مسلمة ومصر ، وهو شاعر لا بأس به بالنسبة لذوق القرن الخامس وعلى دراية وخبرة مناسبتين لزمانه أو قل معبرتين عن ذوق أهل زمانه وطريقتهم فى فهم طبيعة الابـداع الشعرى ووظيفته • وقد قام بنشره بعد ضبط شعره بالشكل ونسـبة الأبيات غير المنسوبة فى المخطوط الى أصحابها محمد بدر الدين العلوى وكتب له المقدمة عبد العزيز الميمنى وهما من علماء الجامعة الاسـلامية (عليكرة) بالهند ، وقـد أرخ الرجلان لمقاليهما فى أول الكتـاب بعام ١٩٣٣ — ١٩٣٤م • والنسـخة التى وقعت فى يدى من الكتاب طبعـة (مطبعة الاعتماد) بالقاهرة ؟ غـير محددة تاريخ الطبـع وان كانت منسوبة الى لجنة التأليف والترجمـة والنشر • وهى نادرة الأخطـاء كالعهد بمطبوعات النصف الأول من هذا القرن ، وان كان قد شابه خطأ مطبعى غريب وهو فى ترقيم الصفحات من ٢٦٥ الى آخر الكتاب فقـد أخذت على التوالى أرقام ٣١٩ بدلا من رقمها الصـحيح والأغرب أن فهارس القوافى والأعلام والشعراء سايرت الخطـأ والصواب معـا فحينا تذكر العلم أو البيت منسوبا الى الرقم الخطأ للصحيفة الذى ورد من الكتـاب بالفعل وحينا تذكر الرقـم الصحيح الذى كان ينبغى أن يوضع عليها •

والكتاب يبدأ بقطعة فى الحماسة لبشار تلك التى أولها •

اذا الملك الجبار صعر خده مشينا اليه بالسيوف نعابثه

ثم يمضى فى روائع الأبيات حتى يتمها خمسة ، فنفهم من ذلك أن الخالديين يقتطفان من كل قصـيدة ما يعدانه قـلادتها وفريدتها وبيت القصيدة فيها الى آخر هذه التعبيرات الدالـة على اغفال قيمة وحـدة القصيدة الفنية وعدم النظر اليها بوصفها بناء متكاملا متحدا لا عضويا ولا موضـوعيا • ثم يأخذ الشـارح فى تعقب بعض أبيـات القطعـة مستحضرا ما تسـعفه به ذاكرته الحافظة من أبيـات مشابهة لشـعراء

آخرين سواء كانوا سابقين على بشار مما يجعله يقضى بأن بشار قد أخذ المعنى منهم وأغار على اللفظ ، أو لاحقين له مما يوحى بأنهم قد استفادوه منه • والشارح مع غزارة مادته يعتمد على ذاكرته غالبا فحسب ، اذ لا يستقصى شيئا سواء من المعانى والألفاظ التى أخذها بشار من السابقين أو من تلك التى أخذها المحدثون منه بل ربما أورد بعض مختار الخالدين دون أن يعلق عليه(٢) وهو كذلك فى شرحه بعض غريب ألفاظ بشار وغيره من الشعراء لا يسير على وتيرة واحدة فربما شرح ألفاظا ليست فى حاجة الى شرحه وأطال من ذلك حتى يجعلنا نظن أنه ينقل من بعض المعاجم نقلا دون تسميته ودون هدف واضح غير الاستطراد فى حين يغفل بعض الألفاظ التى تبدو نادرة الاستعمال وفى حاجة حقيقية الى البيان(٣) وماذا على القارىء او بحث عن معانيها فى أحد المعاجم اللغوية ، ولكن اذا كان الشارح نصب نفسه لهذه المهمة فمن واجبه أن يوفيها حقها • وربما بدا تعبير بشار فى حاجة الى تعليق نقدى أكثر منه لغوى ليبرر على الأقل اختيار الخالديين ومن ذلك قول بشار :

اذا المرء لم يفضل وقام بكله
فليس به باس وليس بكامل
وان كان ذا فضل وقام بكله
فسام به أهل العلى والفضائل
وان كان لا فضل ولم يغن كله
فناديه فى الناس هل من منازل

وفيها استخدام لفظ (كل) على نحو غير مألوف وتعمد وضعه موضعا بديعيا جنح به نحو الغموض بعض الشىء ولكن الشارح لم يحاول أن يناقش شيئا ممن هذه الأمور بل أعرض تماما عن الأبيات منصرفا الى شرح غيرها • وقد يعترف الشارح بأن بعض المختار قد ورد برواية

مختلفة ولكنه لا يعلق على شيء من ذلك ولو بترجيح احدى الرواش • ومن ذلك المقطوعة الغزلية التى أولها :

اذا لاح الصوار ذكرت سلمى واذكرها اذا نفخ الصوار

فلهذه المقطوعة غير رواية الخالديين رواية أخرى نقلها الشارح عن أبى العباس المبرد وما بين الروايتين من اختلاف أن الأخيرة تتضمن أبياتا ليست فى الأولى وقلما يتغير بعض ألفاظ الأبيات المتضمنة فى سابقتها الا أنها تخلو من بيت لا أراه مناسبا للسياق خصوصا اذا لحقه فى الروايتين بيت آخر لا ينسجم معه لفظا ولا معنى وهو :

كأن جفونه سملت بشوك فليش لنومه فيها قرار

والبيت يتعلق بوصفه السهاد وتعليله بشك الشاعر فى أن يكون عدم انطباق جفونه راجعا لكونها سملت بشوك وهو كما ترى تعليل لاذع لا يخلو من تكلف خصوصا اذا قورن بقول بشار بعده :

جفت عينى عن التغميض حتى كأن جفونها عنها قصار(٥)

لاشك ان الشاعر ان كان قد قال البيتين وجعلهما متتابعين كما تزعم رواية الخالديين وتنفى رواية المبرد فقد سقط انفعاليا من مرحلة كان يشك فيها فى أن جفونه قد سملت الى أخرى سار يشك فيها فى أن جفونه قد قعدت وشتان بين التعبيرين والعاطفتين اللتين يدل عليهما كل تعبير • اذن فالمختار مازال محتاجا الى جهد يضاف الى ما بذله أبو الطاهر عن شرحه ويمضى الكتاب دواليك ما بين قطعة لبشار لا تزيد غالبا عن البيتين أو الثلاثة وبين استطراد للتشارح بعد التفسير اللغوى بذكر بعض من شاركوا بشار فى المعنى أو فى اللفظ أو فيهما معا •

وتتلخص القيم الجمالية عند أبى الطاهر فى الابتداع والاختراع وهما عنده بمعنى واحد وتوليد المعانى بحسن التعليل والمبالغة وايرادها

فى عبارة أكثر رامية فيه ممـا كانت عند مبدعهـا كان يزينها بجنـاس أو طباق أو استعارة وجمع عدة معان فى أضيق حيز لفظى ممكن وتوفية الصـنعة حقها ـ على حد تعبيره ـ بمراعاة النظير وحسن التقسيم ونحوه(٦) • وأخيرا تضمن البيت أو المقطوعة طرفا من مكارم الأخلاق أيضا من القيم الجمالية التى تعلى رتبه البيت عند أبى الطاهر •

والمبدأ الأساسى الذى تقوم عليه هذه القيم الجمالية هو أن الشعر صناعة محددة المعالم لنسمع الى اشـادته باختراع بشار مع اغـرابه وايجازه حين يقول عن بيت بشار :

كأن فؤاده كرة تنزى حذار البين لو نفع الحذار

بعد ذكر أبيات كثيرة لشعراء متقدمين ومتأخرين « وقد تردد معنى الخفوق كثيرا جدا الا أن بشار أغرب بذكر الكرة وذكر علة الخفوق وأخبر أنه غير منتفع بها فى الشعر ولا وادع بسـببها وكل ذلك فى بيت فكأنه استظهر شيئا على الجماعة بتمكن بيته فى الصناعة »(٧) ولنستمع اليه يوازن بين بيت النابغة :

ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث • أى الرجال المهذب ؟

وبين هذا البيت الذى لم يسم صاحبه :

ولست بمستبق صديقا ولا أخا اذا لم تعد الشىء وهو يريب

حيث يرى أن « بيت النابغة أفضل : لاختصار لفظه وزيادة معناه على هذا لأن قوله لا تلمه على شعث هو قـول الآخر ـ اذا لم تعـد الشىء وهـو يريب والأول أبين وأخصر فأمـا الزيادة عليـه فقوله : « أى الرجال المهذب ـ فأورد فى عجز بيته مثـلا سائرا بأحسن لفظ وأبلغ معنى (٨) •

وليس أدل على اعتداده بالقيمة الأخلاقية والرسالة التربوية للشعر ممن ايقافه قسطا كبيرا من الكتاب لايراد قدر ضخم من شعر هذا الباب.ومع ذلك فالشارح من رحابة الصدر بحيث يتقبل من الشعراء بل يستملح منهم «احتيالهم فى تهجين الراجح وتحسين الخطأ الفادح» وناهيك عن تصور بلاغته الباطل بصورة الحق وتخرج براعته الكذب البحت مخرج الصدق »(٩) . وقبوله هذا الذى يسميه احتيالا واستحسانه اياه من منطلق أن الحكم على الشىء يتغير بتغير وجهات النظر اليه وتغير الأعراض المحيطة به ثم ان فيه دلالة على قدرة الشاعر على الاقناع بوجهة نظره ولو كانت مخالفة للاعتقادات الشائعة . ومن هنا يورد أبياتا وشواهد تمتدح المشورة وأخرى تذمها .

والعبرة فى كل ذلك بقوة عرض الشاعر فكرته وقدرته على ايضاحها من الأسلوب المشرق البديع . وبرغم هذه الحرية التى يتيحها الشارح للشعراء فى ان يزينوا ما شاؤوا أو يقبحوا ما شاؤوا فهو يفرض عليهم البلوغ بوصفهم الدرجة المثلى فى الصنعة التى تعلق بها كلامهم وبقدر قرب الشاعر من هذا المثل الأعلى أى بقدر مبالغته يكون أفضل من غيره الذى لم يصل الى نفس الدرجة من المبالغة . فعندما يوازن بين مقطوعتين لأبى العباس الناشىء وابراهيم الصابى فى حفظ السر يفضل الأخير لكونه ارتقى بمبالغته درجة لم يصل اليها الأول يقول الناشىء :

وانى لأنسى السر كى لا أذيعه
فيا من رأى شيئا يصان بأن ينسى
مخافة أن يجرى ببالى ذكره
فينبذه قلبى الى مقولى خلسا
فيوشك من لم ينس سرا رجال
فى خواطره ألا يطيق له حبسا

ويقول الصالى :

وللســـــر فيمـــا بين جنبى مكمن
خفى قصى عن مـــدارج أنفـــاسى
كأنى من فـرط احتفـاظى أضـــيعه
فبعض لـــه واع وبعض لـــه ناس

ويعلق الشارح بقوله «وكلام الحكيم أوجز لفظا وأوضح معنى لفضل المتناسى على الناس وقول الصابى ــ فبعضى له واع وبعضى له ناسى ــ من غاية الحسن والاحسان ونهاية الايضـاح والبيان »(١٠) . هذا مع تصريح الصابى بأنه اســتوحى أبياته من الناشىء وأنه يباريه فى بعد الشوط ليس الا وموقف الشـارح هنا يذكرنا بموقف النقـاد من بيت كثير بن عبد الرحمن الذى حكاه ابن سلام حيث يقول :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثل لى ليلى بكل سبيل

فقالوا لو كان صادقا فى حبه لم يرد لينسى ذكرها(١١) .

والشارح كثير الموازنات وبخاصة بين بشار وبين غيره من الشعراء ولكنه للأسف لا يلازمه التوفيق دائما فى مرازناته ومن ذلك ما عقـده بين بيت بشار :

وأملاك صدق ألبستنى طرازهم قصائد مالى غيرهن شفيع

وبين بيتين للبيد يتحدث فيهما عن قوة لسنه ضمن ما يتمتع به من قوى فيقول :

ومقـــام ضيق فرجتـــه
بلســانى وحسامى وجدل
لو يقـــوم الفيل أو فيـــاله
زل عن مثـــل مقامى وزحل

مفضلا بينى لبيد لأنهما (أتم من بيت بشار معنى وأبين شرحا)(١٢) .

والموازنة مغالطة لا تراعى الا استيعاب لبيد لأنواع القوى البدنية واللسانية دون اعتبار للسياق الكلامى الذى ورد فيه النصان ولو عنى الشارح أقل عناية بسياق بيت بشار لوجد أنه لا مجال للتباهى بالقوة البدنية اذ هو فى سياق المديح دون الفخر فمن الطبيعى أن ينوه بقصائده التى كانت سببا فى اتصاله بالملوك الذين يخاطبهم فى قوله :

وزرت حماما يصبح القوم حوله
عكوفا عليهم ذلة وخضوع
ولما التقينا سابق الحمد جوده
فأجدى وجود الطالبين سريع
وأملاك صدق البستنى طرازهم
قصائد والى غيرهن شفيع
اذا حاجة ألقت على بعاعها
ركبت وحسبى متصل وقطيع(١٣)

ومن موازناته ما عقده بين بشار فى قوله :

دعانى الى عمر جوده
وقول العشيرة بحر خضم
ولا بالذى ذكروا لم أكن
لأحمد ريحانه قبل شم

وبين الأعشى فى قوله :

ونبئت قيسا ولم آته وقد زعموا ساد أهل اليمن

مدعيا انه الأصل مستقرا فى ذلك الى صاحب الموازنة بين الطائيين ومع التغاضى عن ايحاء (الزعم) غير المناسب لمقام المدح فقد كان

من حق بشار أن يدافع عنه الشارح بتمام المعنى وقوة التعبير عنه بتجسيده فى صورة بيانية نابضة كما فعل فى الموازنة السابقة عندما فضل لبيد ولكن يبدو أن أبا الطاهر مازال متأثرا بفكرة اعلاء القدامى على المحدثين .

ويحرص الشارح على الاعراب عن اعجابه بابن الرومى « لايراده فى المعنى المأخوذ تشبيهين واقعين بغير آلة تشبيه »(١٤) وذلك فى قوله :

كأن تلك الدموع قطر ندى يقطر من نرجس على ورد

فقد شبه العيون بالنرجس والخدود بالورد بدون ذكر أداة على سبيل الاستعارة التصريحية ، وهنا نسجل عليه مباركته لجنوح الشعر العربى فى هذه الحقبة المتأخرة من العصر العباسى نحو التصنع والتكلف والجمود .

وبعد هذا العرض السريع للكتاب نتساءل عن الهدف من جمع مختاره أولا ثم من شرحه بهذه الطريقة ثانيا ، فأما عن هدف الخالديين فقد قدمت أن شعر بشار قد لقى اهتماما واعراضا فى آن ، فهو من جهة امام المحدثين كما يشهد له ابن المعتز(١٥) — ومفتق أكمام المعانى ، وصاحب بدائع القصائد الذى تتلمذ على يديه عدد غير قليل من الموالى ملأوا النصف الأخير من القرن الثانى الهجرى شعرا وانفردوا بساحة القريض فى زمانهم ، فما تكاد الحقبة تبرز شاعرا واحدا عربى الأصل أو شاعرا واحدا لم يتتلمذ على شعر بشار ولم يفد منه وها هى الحداثة والبراعة فى ابتداع المعانى ، وتوليدها والمحافظة على الصياغة العربية الرصينة وترقيقها بلمسة من البديع غير المتكلف والزمنية غير المستثقلة تجتمع فى شعر بشار ، ولكنه من جهة أخرى امام المتمردين سواء على العرب أو على الاسلام وفى كل يروى عنه شعر غير قليل يكشف عن حقد

على العـــرب وتعصب ضـــدهم واستهان بالدين واســـتهتار فى مناقشة قضاياه وتلاعب فى استعراض ما يلوكه خصومه من شبهات • ومن حق بشار أن تعفيه خصومته لبعض الماجنين من الرواة والشعراء من نسبة بعض هذا الشعر اليه ولكن ومن حق هذا الشعر غير القليل أن يثير فى وجه بشار غبارا يجعل الكثير من الأدباء ينصرفون عن رواية شعره برمته • وبذلك أصبح بشار اماما بلا مسوغات فالناس يسمعون عن ذكائه وقوة شاعريته وجمعه بين سلامة لغة الأعراب من بنى عقيـــل وبين طـــلاوة معانى المتحضرين وطرافتهـــا ولا يكادون يعثرون عـــلى شىء من ذلك وهكذا يكون الخالدين قد قاما بعمل غير قليل الأهمية يحفظان به بعض ما يجب حفظه من شعر بشار ويقدمان مسوغات امامته •

٢ ــ وأما بالنسبة الى الشارح فان بدأ واصر القربى بينـــه وبين شعراء زمانه الذين أكثر من ايراد أشعارهم ــ من جهة وبين شعر بشار من جهة أخرى، ثم مد هذه الأواصر الى ما قبل بشار من شعراء اسلاميين وجاهليين يطمئنه على أن شـــعراء القرن الخامس مايزالون يسيرون على الطريق نفسها التى اختطها الجاهليون ومهدها الاسلاميون ووسعها المحدثون جيلا بعد جيل • لذلك كان حريصا على وضع بشار فى اطاره التاريخى يتأثر بمن قبله ويؤثر بعده ، وذلك كى يستطيع أن يرى عصره هو داخل الاطار نفســـه ان كان قد تأثر بمن قبله من شعراء القـــرون السابقة فلابد أنه سيؤثر فى الشعراء اللاحقين كما كان حريصـــا على ابراز أن بشار أو مدرسته لم تضف الى الشعر العربى الجديد المعجز الذى يعز على شعراء القرن الخامس أن يأتوا بمثله ولذلك توقف فجأة فى الثلث الأخير من الكتاب قائلا : « ســـأورد وأنشد طرفا من مكـــارم الأخلاق وأجعله كالباب أختم به هذا الجزء من الكتاب »(١٦) •

ومع غموض عبارة (هذا الجزء من الكتاب) اذ أنه لم تسبق منـــه اشارة الى نية تقسيم الكتاب ، وتجزئته فمن الواضح أنه بهذا الباب يخرج عن خطة الكتاب تماما • وقد بدأ الباب بقوله تعالى :

« خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » ثم شرح الآية شرحا موجزا وشفع ذلك ببضعة أحاديث شريفة ثم أفضى الى عدة مقطوعات شعرية للمنخل وزهجير وحاتم وغيرهم من الجاهليين والاسلاميين وعرج على ما نسجه هو ومعاصروه على منوالهم .

وانتهى الى بشار فأورد نماذج من مختاره فى الحكمة وكأنه وان لم يصرح — يريد للحكمة التى اشتهر بها المولدون . والتى نسبت أصولها الى ما ترجم من آثار فارس والهند واليونان أن تعود الى أصولها العربية — فهو ما يلبث أن يورد معنى زعم غيره أنه من ابتداعات المولدين وعقب عليه بما أصله المنقول من كلام « بعض لصوص العرب الاسلاميين » (١٧) .

وفى القرن الخامس تكون قضية القدامى والمحدثين قد حسمت — أو كادت — فما عاد يملأ ساحة الشعر غير المحدثين وقد استطاع المتنبى بطريقته التى مزجت بين البداوة العربية والحكمة اليونانية من ناحية وبين الطبع المتفق والصنعة المتقنة من ناحية أخرى ، أن يضم تحت جناحيه مذاهب القدامى والمحدثين معا ويحيل القضية الى قبول لهذا النموذج المتفرد مع التسليم بصعوبة اللحاق به أو رفضه متبعا لرفض شخصية صاحبه لا لرفض مذهبه فى الشعر ولذلك اختلفت الخصومة حول المتنبى اختلافا بينا عن مثيلتها التى قامت فى القرنين الثالث والرابع حول أبى تمام والبحترى . من هنا لم يكلف أبو الطاهر نفسه مؤنة الدفاع عن المحدثين ولم ير داعيا لاعادة الجهد الضخم الذى بذله ابن المعتز من (البديع) لتأكيد أن كل الجديد الذى جاء به المحدثون من استعارة ومطابقة وتجنيس ورد أعجاز الكلام على صدوره وغيرها ذو أصول عربية متمثلة فى القرآن الكريم والحديث الشريف والشعر الجاهلى والاسلامى فلم يعد ثمة من يلحون فى ادعاء عكس ذلك .

ويعترف أبو الطاهر كما يعترف معاصراه ابن رشيق القيروانى وابن شهيد الأندلسى بأن الأذواق تتغير بتغير الأزمنة • فابن شهيد على سبيل المثل يقول : « ألا ترى أن الزمان لما دار كيف أحال بعض الرسم الأول فى هذا الفن الى طريقة عبد الحميد وابن المقفع وسهل ابن هارون وغيرهم من أهل البيان ؟ فالصنعة معهم أفسح باعا وأشد ذراعا وأنور شعاعا لرجحان تلك العقول واتساع تلك القرائح فى العلوم ثم دار الزمان دورانا فكانت احالة أخرى الى طريقة ابراهيم بن العباس ومحمد بن الزيات وابن وهب ونظرائهم فرقت الطباع وخف ثقل النفوس ثم دار الزمان فاعترى أهله باللطائف صلف وبرقة الكلام كلف فكانت احالة أخرى الى طريقة البديع وشمس المعالى وأصحابهما وكذلك الشعراء انتقلوا عن العادة فى الصنعة بانتقال الزمان وطلب كل ذى عصر ما يجوز فيه وتهش له قلوب أهله فكان من صريع الغوانى وبشار وأبى نواس وأصحابهم فى البديع ما كان من استعمال أفانينه والزيادة فى تفريع فنونه »(١٨) •

وتبقى أمام نقاد العصر مشكلة لماذا لم يظهر شاعر بعد المتنبى يضارعه فى فحولته ؟ • ولماذا توقف تتابع الشعراء الأفذاذ النحرير ؟ وحرم أبناء القرن الخامس من شاعر يقف من طبقة واحدة مع كبار الشعراء السابقين • وها هو ابن رشيق يعبر عن احساسه بأزمة الابداع الشعرى فى زمانه حين يقول : «وان قال قائل ما بالكم يا معشر المتأخرين كلما تمادى بكم الزمان قلت فى أيديكم المعانى وضاق بكم المضطرب قلنا أما المعانى فما قلت غير أن العلوم والآلات ضعفت ليس يدفع أحد أن الزمان كل يوم فى نقص وأن الدنيا على آخرها ولم يبق من العلم الا رفعه معلقا بالقدرة ما يمسكه الا الذى يمسك السماء أن تقع على الأرض الا باذنه »(١٩) •

فاذا كانت الألفاظ محدودة غير قابلة للزيادة الا بقدر ضئيل —

فليس كل مشتق بالقياس و معرب بمقبول فى لغة الشعر ــ فان المعانى لا حدود لهـا والعيب فيمن همـدث قرائحهم عن ابتداعهـا وتوليدها وقعدت هممهم عن البحث عنها والغوص وراءها وطلب العلم وشـحذ الأداة بتعبير ابن رشيق • وها هو ابو الطاهر يتخذ اجراء عمليا يتبع به المعانى منذ بدء ابتداعها الى تفصيلها والتفريع عليها وتوليد بعضـها من بعض لعله وهو يطلع شعراء عصره ــ بخاصة شداتهم ــ على كيفية تخريج المعانى وتوليدها أن يشحذ فى أذهانهم وأخيلتهم القـدرة على أن يحذو ذلك الحـذر • ولكنه ــ فيما يبدو ــ ليس متشائما بقـدر تشاؤم ابن رشيق بل انه يرى أن شـعراء عصره لديهم من النمـاذج الجيدة ما يستحق أن ينضم فى صعيد واحد الى النماذج الجيدة للشعراء المتقدمين ولهذا نجده يكثر من ايراد اشعار معاصريه لأدنى مناسبة وكأنه يشعر ــ بالفعل ــ بضرورة الثقـة فيهم والدفاع والاعتـراف بامكان وقوفهم على قدم المسـاواة من حيث الابداع الشـعرى مع سابقيهم من الشعراء •

ونستنتج ممـا تقدم أن الكتاب يدور حـول محورين أسـاسيين أولهما يبين ما يتبقى من الشاعر بعـد قرنين من رحيله وقد تغـيرت الظروف وذهب أصدقاؤه وخصومه •

ويجيب عن ذلك الخالديان باختيارهما ، والمحور الآخر تدور حوله تأملات أبى الطاهر فى طبيعة ابداع الصورة الشعرية وكيفية انبثـاق بعض الصور من بعض وعلـة تفضيل بعضـها على بعض وأقـول ان أبا الطاهر يتأمل فى ابداع الصورة الشعرية بخاصة وليس فى الابداع الشعرى بصفة عـامة لأن تركيزه كان دائمـا على عناصر جزئيـة من مكونات القصيدة ولم يكن مطلقا ممتدا الى القصيدة ككل وقبل أن نمضى مع أبى الطاهر فى تأملاته هذه نتوقف مع الخالديين واختيارهما باحثين عن دلالته •

وأحسب أن دلالة الاختيار لا تكمل الا بين ما أختير من شعر بشار وبين ما صرف عنه الخالديان أنظارهما،مما تبقى من ديوان بشار. وبالموازنة يتضح أن اختيار الخالديين يقع غالبا على ما يمكن تسميته النمط الأوسط ، فلقد كان بشار شاعرا ممن يحتوى ديوانهم على الثوب الخلق ــ بتعبير القدامى ــ والديباج الموشى والخز المجد أو كما يقول عنه أبو عبيدة « فيه شذرة ونقرة »(٢٠) و « انه كسباطة الملوك منها كقطعة ذهب وما تشاء من رماد »(٢١) أى على مستويات متفاوتة من اللغة فحينا يخاطب خادما له بما يعجبها ويطربها ويقول لها :

ربابة ربة البيت تصب الخل فى الزيت
لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت

وحينا تجلجل قوافيه بما يعجب الفرسان ويطربهم :

اذا ما غضبنا غضبة مضرية
هتكنا حجاب الشمس أو تمطر دما
اذا ما اعرنا سيدا من قبيلة
ذرى منبر صلى علينا وسلما

وحينا يسبح خياله وراء الصور التى تبهر البيانين وتسحرهم كبيته السائر :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

وحينا تهيم تأملاته وراء الأفكار العميقة فيأتى منها بالدرر اليتيمية ولو مضينا نستقصى جوانب ابداعه أو مستوياته المتنوعة غاية التنوع لخرجنا عن نطاق هذا البحث ولكن يكفى هنا أن نذكر أن لبشار مع كل هذه الجوانب المتنوعة جوانب أخرى يتهتك فيها ويمجن كأفحش ما يكون التهتك والمجون . فاذا وقف الخالديان على ديوان رحب الجنبات

مترامى الأطراف كهذا الديوان فما يختاران ؟ يختاران ما يقبله الذوق المتوسط الذى لا ينقب وراء التأملات الفلسفية البعيدة ولا تسكره التكشفات الماجنة بل يبتغى بين ذلك قواما وسطا يأخذ من غزل بشار الصورة الحسية ولكن بعد أن يحذف منها التبذل والمجون ويأخذ من تأملاته ما جاء منها عفو الخاطر نقيا من أغاليط المنحرفين وسموم المارقين التى اندس بعضها الى ديوان بشار ويأخذ منه فخره ولكن بولائه الى بنى عقيل متجافيا شعوبيته واستهانته بالعرب والبدو ؟ منهم نجاحه ؟ بل يامح الى تمسحه بهم وتملقه لهم فى نظمه الرجز على طريقتهم وقد يبتسم لبعض معابثات بشار ودعاباته ولكن بشرط ألا تكون خارجة جارحة واو على حساب بشار نفسه ولذلك يحذف من غزله ما يذكر فيه آفته وكيف أنها لا تعوقه عن ممارسة عبثه وفتكه المزعوم . وهكذا يتبين لنا من خلال موازنة ما يختاره الخالديان بما يهملانه أنهما يراعيان النمط الأوسط الذى يبقى معجبا مطربا رغم الظروف الاجتماعية التى غالبا ما ينتج عنها تغير فى الأذواق ، فاذا كان أهل البصرة تلك المدينة الصاخبة العامرة بشتى طرائف الناس من عرب حواضر وبواد الى موال من أجناس متعددة يتذوقون فكاهات بشار اللاذعة ويستميل بعضهم هجاؤه الفاحش أو تجديفه المارق فان صاحبى خزانة كتب سيف الدولة يعرفان أذواق الفئة من الناس الخاصة (الأرستقراطية) التى يتقدمان اليها باختيارهما ، ان لها من رهافة الحس ، وحساسية الموقع ما لا تستسيغ معه هذه الفكاهات اللاذعة وهذا الخوض الصاخب الذى طالما خاضه بشار متجرئا — ان شئت أو متبجحا سواء من غزله أو من هجائه أو فى شعوبيته أو فى زندقته . فآل حمدان عرب تغلبيون يقوى فى نفوسهم الشعور بالانتماء بل يشعرون أنهم البقية الباقية من الكيان العربى الذى تغلبت عليه الأجناس المختلفة من بويهيين فى الشرق وأخشيديين فى الغرب والجنوب ، ويفخرون بتمثيلهم طموح العروبة على هذا النحو تماما كما يشعرون بأن دولتهم الصغيرة من دون سائر الدول التى

تمزقت بهـا الخلافة العباسـية هى الوحيـدة التى تحمـل لـواء الجهاد وشرف الدفاع عن الاسلام ، ومن ثم كان من العسير أن يتقبلوا شيئا من شعوبية بشار أو زندقته • وترى أو كان الخالديان فى موقع آخر غير الذى هما فيه أو كان يبقى اختيارهما على ما رأينا كان يتغير ؟ قد يجيب عن ذلك اهتمام الخليفة عبد الله بن المعتز فى (طبقات الشعراء المحدثين) بألوان أخـرى من شـعره توحى بأنه كان أقل حيـادا من الخالديين حين أورد من أخبار بشـار ما ينفى عنه تهمة الزندقة ويؤكدا أن المهدى ندم على قتله بعدما تبين له كذب ادعائها ، كما كان أكثـر قربا من ذوقـه حين أورد من فكاهاته اللاذعة أكثر ممـا احتمله ذوق الخالديين واكن لنذكر أن ابن المعتز يؤرخ لبشار ويخبر عنه ولا يختـار أفضل ما فى شعره كما يفعل الخالديان وكذلك يمكن القول عن صـاحب الأغانى فى ايراده الكثير من وقائع بشار العابثة • ولهذا نقول ان فكاهة بشار بكامل لذوعتها أو اسفافها لم تكن لتحتملها بيئة أكثر من البيئـة التى أنبتتها فى الوقت الذى ظهرت فيه • ولكن أو لم تـرد أكثر هذه الفكاهات اللاذعة الغمزات المارقة مكررة فى كتب الاخبـاريين والرواة « كمعجم الأدباء » و « أدب الكاتب » و « نهاية الأدب » وغيرها نعم لقد وردت ولكن لا على سبيل الاختيار والتفضيل بل على سبيل الاخبار والتوثيق فحسب ؟ ومن ثم يبقى أقـرب ما يكون الى الصدق ــ رغم ما فيه من قيم ثابتة ــ ان اختيار الخالديين القـائم على مراعاة النمط الأوسط من حيث مستويات اللغة ومن حيث حـرية التعبير واحتـرام قيم المتلقين وعدم المساس بها هو المعبر عن رأى جمهرة نقاد العـرب وأدبائهم فى شعر بشار وهو المجيب بطريقة عملية عن التساؤل حـول (ماذا يتبقى من الشاعر المنطلق فى شىء غير قليل من الحرية ورغبـة غير محدودة فى الخروج عن مألوف فوق المخاطبين بشعره ؟) بدليـل اهتمامهم بروايته وانتداب بعضهم نفسه لشرحه وعدم قيام أحـدهم بالرد عليه وتأخير شىء مما قدم واختيار شىء مما أهمل ، ويؤكد هذه

الدعوى وان النقاد العرب كانوا يستشعرونها بالفعل ــ وخصوصا نقاد القرن الخامس ــ ما رواه ابن رشيق عن شيخه عبدالكريم النهشلى من أن لأهل كل زمان ذوقا خاصا وأن الشاعر الذى يبتغى الخلود عليه بالمتوسط بين الأذواق المتطرفة اذ يقول « قد تختلف المقامات والأزمنة والبلاد فيحسن فى وقت ما لا يحسن فى آخر ، ويستحسن عند أهل بلد ما لا يستحسن عند أهل غيره ونجد أن الشعراء الحذاق تقابل كل زمان بما ستجيد فيه وكثر استعماله عند أهله بعد أن لا تخرج من حسن الاستواء وحد الاعتدال وجودة الصنعة ، وربما استعملت فى بلد ألفاظ لا تستعمل كثيرا فى غيره كاستعمال أهل البصرة بعض كلام أهل فارس فى أشعارهم ونوادر حكاياتهم ــ والذى اختاره أنا التجويد والتحسين الذى يختاره علماء الناس بالشعر ويبقى غابره على الدهر »(٢٢) .

فاذا كان اختيار النهشلى الذى نقله ابن رشيق نظريا فقد ورد اختيار الخالديين عمليا ، قائما على أساس من نفس القيم والمقاييس التى تتلخص فى الاستواء والاعتدال وحسن الصنعة أو النمط الأوسط بتعبير الجاحظ .

وأما الشارح ففى اختياره ما يقربه بشعر بشار من ابداع المتقدمين والمتأخرين ما يشير الى انتهاجه نفس النهج مع اختلاف طفيف فى الدرجة وهنا ننتقل الى المحور الأساسى الآخر الذى تدور حوله أفكار الكتاب وهو المتعلق بطبيعة ابداع الصورة الشعرية وكيفية انبثاق بعض الصور من بعض وتفضيل بعضها على بعض، والشارح يبذل جهده فى ذلك الصدد ليفتح أمام شعراء عصره الطريق الى مزيد من الاجادة فى الصنعة الشعرية ويدحض دعوى زوال دولة الشعر بما يورده من نماذج يستجيدها من شعره هو وشعر أقرانه كأبى الحسن الربعى وأبى الحسن الشيبانى وغيرهما .

ومشكلة السرقات لا تأخذ اهتماما كبيرا لدى الشارح بالرغم مما

يتراءى للقارىء للوهلة الأولى من شدة اهتمامه بتتبع تناول الشعراء العديدين للمعنى الواحد أو الصورة الواحدة ، فهو يكثر من ايراد أشعار غير منسوبة الى قائليها مما يعطل دعوى الأخذ والاغارة حيث لا ندرى ان كان هذا المجهول قد سبقت الى المعنى أم أنه قد استعاره من سابقه،بل يورد الشارح أحيانا شعر معترفا بأنه يقارب سابقه فقط وان لم يكن من نوعه تماما بحيث يصدق فيه الحكم بأخذ اللاحق عن السابق فحين نعرض الى أبيات يمدح بها بشار عمر بن العلاء وانتهى الى قوله :

اذا قال ثم على قوله مات العناء بلا أو نعم

علق عليه بقوله « وقريب منه وان لم يكن المعنى بعينه قول الآخر » .

ان كنت لم تنو فيما قلت لى صله
فما انتفاعك فى حبسى وترديدى
فالمنع أجمله ما كان أعجله
والمطل من غير عسر آفة الجود

ومثله قول الآخر :

وعدتنى سبتا مضى فسبتا حتى اذا السبت أتى اخلفتا
أحسن من وعدك لو أنجزتا

وأخذه المحترى فقال :

« ووعدتنى يوم الخميس وقد مضى
من دون موعدك الخميس الخامس »(٢٣)

ومن هذا النص نلاحظ أولا : أنه يعترف بأن ما يورده من معان متناظرة لا يعنى اعتقاده باتحادها أو مماثلتها التامة فهو يرى بين

المعنين وجوه غرق ويدعو القارىء الى التفطن اليها ثم انه بعد ذلك لا يبتغى اتهام أحد بالسرقة أو لا يهتم بتعريف ذلك الآخر صاحب المعنى القريب . ومن ثم لم يقل بالأخذ الا فى مثل حالة البحترى عندما صار المعنيان من القرب والخصوصية بحيث يترجح القول بالتأثر والأخذ وهو مع ذلك لا يحكم بالأخذ على سبيل التهجين كما هى عادة أصحاب كتب السرقات كالمهلهل بن عوث صاحب سرقات أبى نواس وبشر بن يحيى صاحب سرقات البحترى من أبى تمام وانما يحكم بالأخذ تمهيدا لفتح باب الموازنة بين قولى الآخذ والمأخوذ منه ، وعنده — بكل تسامح — أن الآخذ أحق بالمعنى اذا أحسن صياغته بالنسبة الى مبتدعيه ؟ اذ يقول عن بيان بشار :

جفت عينى عن التغميض حتى كأن جفونها عنها قصار

انه مأخوذ من قول جميل بن معمر :

كأن المحب قصير الجفون لطول السهاد ولم تقصر

الا أن بشار أحسن فيه فصار أحق به وتناوله العتابى فأفسده بقوله :

فى مآقى انقباض عن جفونهما وفى الجفون عن الآفاق تقصير(٢٣)

واذن فهو لا يهبط بقيمه بشار حين أخذ المعنى من جميل بل يثنى عليه لحسن صياغته ولو تفوق العتابى فى صياغته على بشار وجميل لكان الأحق به من دونها فليس يعيبه أخذه المعنى بل يعيبه افساده اياه، وهذه لعمرى نظرة متقدمة الى قضية السرقات مل الناقد فيها بدور الشرطى المتعقد بعد أن وعى جيدا أنه ما من شاعر الا وقد أفاد ممن قبله ، وكأنى به يقول مع الجاحظ ان المعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العربى والعجمى والبدوى والقروى ، وانما الشعر نسج وصياغة وضرب من التصوير ،ولذلك يكثر من ايراد الشواهد الدائرة حول معنى

واحد ليتيح للقارىء الموازنة بينهما ومعرفة أسرار تفـوق بعضها على بعض ولا يعبأ باسنادها الى أشخاص معينين اذ ليس همه الحكم على الشاعر وانما همه التأمل فى الشعر نفسه •

وحين يحث الشارح عن أصل المعنى ومصدره الأول لا يفعـل ذلك اعادة للحق الى نصابه تنويها بفضل أصحاب الفضل وانما يفعله بحثا عن المجال الذى يمكن أن يستمد منه الشعراء المعاصرون مزيدا من المعانى الجديدة ولذلك تتبع مصدر بيت بشار :

ما هبت الريح من تلقاء أرضكم الا وجدت لها بردا على كبدى

لقد كثر ثناء الشعراء على الرياح المقبلة من جهة الأحبة وهذا معنى مستملح مستطاب ولكن الى من يمكن نسبة أصله ان لم يكن الى عادات البشر وفطرتهم وطبيعتهم العفـوية « ان كل من له حب بناحية فانمـا يرتاح الى هبوب الريح من تلك الناحية صبا كانت أو جنوبا أو شـمالا أو دبورا • قال عمر بن الخطاب رحمه الله انى لارتاح للصبا لأنها تأتينا من ناحية زيد يعنى أخاه لأن زيدا رحمه الله كان قد استشهد باليمامة وقال عمر هذا وهو بالمدينة وقال يعقوب النبى عليه السلام فيما قال الله سبحانه مخبرا عنه فى محكم كتابه : «ولما فصلت العير قال أبوهم انى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون » وكان يعقوب عليه السلام بوادى كنعان ويوسف عليه السلام بمصر «(٢٤) • واذن فما يأتيه من جهـة يوسف ريح جنوبية وعمر رضى الله عنه ويعقوب عليه السلام لم يريدا أن يقولا شـعرا وانما أرادا أن يعبرا عن أنفسـهما بصدق وتلقائية وبساطة ولذلك حظى كلامهما بتأثير يفوق تأثير الشاعر • ومن هنا نأخذ أن من أقوى مصادر المعانى وأصـوله عند أبى الطاهر الرجـوع الى الطبيعة الانسانية وتصويرها وهى تعبر عن نفسـها فى صدق وتلقائية وبساطة ، وبذلك يضمن الشاعر لقوله التأثير المطلوب •

غير أن أصل المعنى غالبا ما يكون ساذجا غفلا ولو ردده الشعراء كما هو دون تصرف لن يلقى من السامعين غير الملل والاعراض كذلك يورد أبو طاهر البشار بيتا مطربا ثم يلحقه بأبيات لآخرين كثيرة،ثم يقول بعد امتداحها :

« أصل المعنى الأول (من كل ما قال الشعراء فى وصف السهاد) قول الحارث بن خالد :

تعالوا أعينونى على النيل أنه على كل عين لا تنام طويل(٢٥)

ولكنه ــ كما نرى ــ لم يرحب ببيت الحارث كما رحب بالذى وصف جفونه بالعقد أو ادعى أنها سملت والذى زعم أن أهدابه ربطت بحاجبيه(٢٦) • وهنا نلاحظ شيئا من التناقض وقع فيه أبو طاهر حين يلح فى البحث عن أصل المعنى ثم ما يلبث أن يزهد فيه ويضعه فى اطار من الاهمال حين يعثر عليه ، اذ يغلب على الناقد ذوق القرن الخامس والمشغوف بالصنعة ولو على حساب الصدق والتلقائية • بذلك يكون غايته من البحث عن أصل المعنى مجرد رصد عملية التطوير التى يجريها عليه الشعراء الواحد بعد الآخر •

فاذا فرغنا من محورى الكتاب بقى أمامنا آخر قضايا البحث وهو المختص بتقييم الكتاب ، الواقع أن (المختار من شعر بشار) تقوم فكرته على أساس نقدى مغامر أو مغالط ذلك أنه لا يعنى ببناء القصيدة أو سياقها الخارجى الذى نظمت فى مناسبته فضلا عن طبيعة المبدع والمتلقين والسياق التاريخى الذى يعيشون فى اطاره وانما يلتقط منها بعض وحداتها الصغيرة بحجة استغنائها عن بقية البناء واكتفائها بذاتها دلاليا وجماليا ، ودراسة الوحدة الشعرية معزولة سواء كانت بيتا مزيدا أو صورة أو فكرة أو حتى معنى شعريا لم ينتج النقد العربى القديم والبلاغة العربية الا أحكاما جزئية ، لا تتمتع بشمولية النظرة الى الأدب

فى فهمه وتفسيره وتقويمه بل تتولد عنها ــ كما حدث أثناء القرن السابع الهجرى وما بعده ــ أعداد لا حصر لها من التفريعات والتخريجات المنطقية العقيمة التى أبعدت النقد عن الثقافة العربية تماما وجمدت البلاغة داخل أطر متحجرة من القواعد المنطقية الجافة • ومع هذا فربما استسيغت دراسة بعض عناصر العمل الأدبى بعد عزلها بهدف تحقيق أكبر قدر ممكن من الثقة فى الأحكام والتعمق فى النظر ، ولو أمكننا تناول كتاب المختار بناء على هذا الافتراض فسيبقى أمامنا أن نتساءل حول مغزى الاختيار من شعر بشار من جهة ثم حول هذا الاستعراض المستفيض لما يناظر بعض أبيات بشار معانى أو صورا الذى قام به الشارح •

ان الشعر الجيد يستحق هذا الوصف لأنه يحمل صورة جيدة وليس فقط لأنه يحمل معنى جيدا • فالصورة هى أهم عناصر الشعر الجيد ولقد فطن الى ذلك النقاد العرب القدامى بل سبقهم اليه المتذوقون من ذوى الحاسة النقدية الرفيعة ، فحسان بن ثابت يطرب عندما يصيب ابنه التشبيه فى عبارة ويقسم أن ابنه شاعرا ، وعبد الملك بن مروان ينفى صفة الشعر عن هذين البيتين فهما عنده ليس أكثر من (شرح اسلام أو تفسير آية) •

والجاحظ يفسر تأخر صالح بن عبد القدوس عن أضرابه من الشعراء المجيدين بأن شعره كان تقريرا مباشرا سواء فى ارساله الحكم والأمثال ، اذ « لو كان شعر صالح بن عبد القدوس مفرقا فى أشعار كثيرة لصارت تلك الأشعار أرفع مما هى عليه بطبقات ولصار نوادر سائرة فى الآفاق ولكن العقيدة اذا كانت كلها أمثالا لم تسر ولم تجر مجرى النوادر »(٢٧) • ان للشعر لغته الخاصة ووظيفته التى تجعله مختلفا عن الخطابة والكتابة بمختلف أنواعها ، ولغة الشعر هى لغة التصوير ، تصوير المعانى والعواطف والمشاعر والمواقف وما تقدم

اللفظ على المعنى عند أكثر النقـــاد العرب الا لأنه دون المعنى هو الذى يحمـل الصورة الشعرية ويؤديها ولذلك كثر أيضـــا كلامهم عن اللفظ اللائق بالشعر الذى يتمتع باشعاع قوى وايحاء نفاذ الى خيال السامع يثير على مسرحه الصـــور المختلفة حية نابضـــة • وربما كان تحسس أسرار الصورة الفنية هو الذى جعل عبد القاهر يؤمن بأن النظم وليس اللفظ ولا المعنى هو الذى عليه المعول فى الحكم على الـــكلام بالبـــلاغة وحسن البيان ، فهو يفسر النظم بأنه « ان تقتفى الألفاظ فى نظمها آثار المعانى وترتبهـــا على حسب ترتيب المعـــانى فى النفس » فهو اذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضـــه مع بعض وليس هو النظم الذى معنـــاه ضـــم الشىء الى الشىء ، كيف جاء واتفق ، وكذلك كان عنـــدهم نظيرا للنسج والتأليف والصياغة والبناء والوشى والتحبير وما أشبه ذلك مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض حتى يكون لوضع كل حيث وضع علة تقتضى كونه هناك وحتى لو وضع فى مكان غيره لم يصلح »(٢٨) •

ولكن علينا قبل ذلك أن نتوسع فى فهم الصورة عن النطاق الضيق الذى انحسرت فيه الصورة البيانية عند البلاغيين المبنية على الاستعارة أو المجاز • فالصورة كما يفهمها النقد الأدبى الحديث « صورة حسية فى كلمات ؟ استعارية الى درجة ما فى سياقها نغمة خفيضة من العاطفة الانسانية ولكنها أيضا شحنت ـــ منطلقة الى القارىء ـــ عاطفة شعرية خالصة أو انفعالا »(٢٩) • ومعنى كونها (استعارية الى درجة ما) أنهـــا قد تبنى على ألفاظ حقيقية فى مجموعها كالصـــورة الكنائية مثلا أو الصورة الحديثة أو الوصـــفية ان أهم ما تتميز به الصـــورة هو اثارتها لخيال المتلقى وعاطفته بما تطرحه من عناصر حسية ملموســـة لا معنوية مجـــرده حتى وهى تتكلم عن الصفات المطلقـــة توردها فى صورة متعينة وقد تشخصت امام خيال المتلقى كقول الشاعر :

ان السماحة والمروءة والندى فى قبة ضربت على ابن الحشرج

فها هى ذى المعانى المطلقة السماحة والمروءة والندى وقد تشخصت وأصبحت مخلوقات مرئية مسموعة تذهب وتجىء وتقيم مع ابن الحشرج فى خيمته .

وعلى قدر حظ الشاعر من (التفكير بالصور) تكون قدرته على مخاطبة أعمق أغوار الضمير الانسانى بفطرته البسيطة والأصيلة معا ذلك « أن الشعر هو النشاط الأول للعقل الانسانى ، فالانسان قبل أن يصل الى مستوى تصور الكليات فانه يتصور أفكارا متخيلة ، قبل أن يفكر بعقل واضح يدرك الأشياء بملكات مشوشة قلقة قبل أن يتمكن من الافصاح الواضح عنها ، أنه يغنى قبل أن يتكلم نثرا ، وهو يتكلم بالشعر قبل استعمال المصطلحات التقنية ، والاستخدام الاستعارى للكلمات يكون بالنسبة اليه فطريا مثل أى شىء تدعوه طبيعيا »(٣٠) .

فاذا رجعنا الى بشار وجدنا أن رؤيته المتميزة لطبيعة الصورة الشعرية هى التى هيأت له المكانة الرفيعة التى حظى بها بين شعراء عصره(٣١) . وبلغة الأسلوبيين نقول ان بشار قد حطم حدود الصورة الشعرية القديمة وانحرف بها عن طريقها المرسوم منذ الجاهليين فاكتسبت عنده أصالة وخصوصية وتميزا أقتضى به المولدون فى خوض هذه التجارب والتمادى بها الى غايات أبعد لقد كان التشبيه عند الجاهليين يقوم على المماثلة الحسية وبقدر تحقق هذه المماثلة يكون توفيق الشاعر فى تكوين صورته حتى اذا جاء بشار ومعه عاهته التى لا توصل اليه المحسوسات الا توهما ومشبعة بألوان وجدانية وعواطف متمايزة أخذت الصورة الشاعرية عنده هذا الشكل الجديد الذى لا يكون فيه المشبه بالضرورة مماثلا للمشبه به من الناحية الحسية ، بل يكفى أن يكون الايحاء المنبعث فيهما من نوع واحد وبدرجات متقاربة وهكذا استساغ لنفسه أن يشبه رجع حديث صاحبته بقطع الرياض . وأن يجعل هاروت تحت لسانها ينفث فيه سحرا :

وكـأن رجـــع حديثهـــا
قطـع الرياض كسين زهـرا
وكـأن تحـــت لســـانها
هـاروت ينفث فيـــه سحرا
حـــوراء ان نظـرت اليـ
ك ســـقتك بالعينين خمـرا

بالاضافة الى عاهته التى هيأت له تصورا متميزا للمرئيات غـير متقيد بوضعها الحقيقى فقد تمتع بشـار بطبيعة انفعالية جياشة قـد ترجع نوعا ما الى أصله الفارسى ــ كما يرى الدكتور شوقى ضيف(٣٢) ــ وقد ترجع الى آفته مرة أخرى وفاقته والظروف الشاذة لأسرته • ولكنها على أى حال مسـتمدة من فطرته التى جبـل عليها قبـل أى سبب آخر •

ولهذا فمن الصعب ــ مهما تأثر المرء بانفعال نقاد العرب للشعراء الجاهليين ــ أن يوازن بين بيت بشار :

كأن مثار النقع فوق رؤسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

وبيت امرىء القيس :

كأن قلوب الطير رطبـا ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالى

فاذا قيل لقد شبه امرىء القيس اثنين باثنين كما فعل بشـار فان فى بيته الأخير من تصوير الحركة الصاخبة الآخذة بمجامع القلوب هولا ورهبة لا نعثر على شىء من حرارتهوحيويته فى بيت امرىءالقيس الذى يمكن عده جيـدا بمقياس القـدامى الذين يهمهم من التشـبيه المضاهاة الحسية شـكلا ولونا وهيئة ولكنه يفتقد الوظيفة الجـديدة التى تحملتها الصورة عند بشار والمتمثلة فى تكثيف الايحاء الى المتلقى

بالحالة الوجدانية التى يعيشها المشبه . ولقد اجتهد الشارح فى جمع أبيات عدة اقتفى أصحابها ببشار فوصفوا جو المعركة بذكر النقع المثار والسيوف المتهاوية وشبهوا هذا فى قتامته بالليل وشبهوا ذلك فى لمعانها بالشهب ولكن أحدا منهم لم يفد من رؤية بشار المتميزة أو قل احساسه الشديد الخصوصية بهول أجواء المعارك وأثرها على النفوس الذى يصوره الفعل (تهاوى) . فاذا راجعنا أبياتا مثل قول مسلم :

فى جحفل تشرق الأرض الفضاء به كالليل أنجمه القضبان والأسل

وأخذه منصور النمرى فقال :

ليل من النقع لا شمس ولا قمر الا جبينك والمذروبة والشرع

وأخذه العتابى فقال :

تبنى سنابلها من فوق هامهم ليلا كواكبه البيض المآثير

وقد أوردها الشارح على التوالى كما أورد أبياتا أخرى كثيرة ذكر فيها النقع والسيوف ولكنها خلت من الوصف الحقيقى للمعركة والحق أن الشارح قد أحس بهذا الفارق الدقيق بين بشار وبين من نأثر به من الشعراء فقال « بيت أبى معاذ أفضل وأحسن وأصنع وأرصن وهو من محاسن شعره وافراد أبياته » .

ولكنه لم يحدد لم كان بيت أبى معاذ أفضل على النحو الذى ذكر وانما اكتفى بهذا التعميم القليل الجدوى والمشكلة أن معظم أحكامه وردت بهذه الصفات الجزافية مما يجعلنا نشك فى مدى تنبهه الى القيمة الحقيقية للصورة فى شعر بشار ، خصوصا اذا استعرضنا الأبيات التى صرح باستحسانها من بشار وغيره والحالات النادرة التى نص على مواطن الحسن فيها والأسباب أو القيم الجمالية التى بنى أحكامه على أساسها ، وقد تقدم ذكرها وهى بالجملة لا تبعد عن الاستعارة الغريبة والتجنيس الطريف والمطابقة وحسن التعليل

ومراعاة النظير الى آخر هذه الجماليات التى عدها أبو الطاهر (من صنعة الحاذقين بالشعر) .

بل أكاد أقول ان كثيرا من الشعراء الذين تتلمذوا على يد بشار — سواء بالمصاحبة الفعلية كما تحكى أخباره مع الكثير من شعراء عصره الملتفين حوله أو بمداومة النظر فى شعره واستياء خيالاته المبتكرة وأفكاره العذبة — لم يستطيعوا أن يلحقوا به فضلا عن أن يبلغوا شأوه فى جمال صوره بما تحمل من شحنات عاطفية وانفعالية متدفقة وأخيلة استعارية مبتدعة . لقد أخذوا منه اشارة الانطلاق الى الاغراب فى الأخيلة والاهتمام بتزيين الصياغة . ولكن هذا الذى شرعه بشار وانتهجه المحدثون كان بالنسبة اليه فعلا تلقائيا نابعا من طبيعة ظروفه الخاصة منسجما معها ومعبرا عنها فى صدق ودون تكلف وكان هو نفسه بالنسبة الى المحدثين ميدانا للتبارى بينهم فى بعد الأخيلة ومجالا للسباق فى البحث عن كل مستغرب مبتدع بصرف النظر عن مدى صدقه فى التعبير عنهم وقدرته على نقل أحاسيسهم وعواطفهم . ولذلك فسرعان ما وجدنا طريقة بشار التى استحسنت عنده وحمدت له تنقلب وبالا على الشعر العربى وتورط الشعراء فى التكلف والتعقيد والاحالة وتبعد بهم وبشعرهم عن وظيفته الانسانية المتمثلة فى التعبير الصادق عن التجربة الخصبة المتميزة المفعمة بالعواطف الانسانية غير الزائفة أقول هذا حين أتذكر تجربة أبى تمام ومدرسته البديعية التى بعدت بالشعر عن التوازن الجميل المعجز الذى اصطنعه بشار بين التلقائية والصدق من ناحية وبين الابتداع والطرافة من ناحية أخرى ، وان كان صدق بشار هو الذى أوقعه فى كثير من الخصومات المريرة مع العلماء والفقهاء ورجال الدولة وغيرهم ممن يحاسبون الشاعر أخلاقيا قبل أن يحاسبوا فنيا حتى انتهى به الأمر الى الموت جلدا .

فتأمل كيف يمتدح فى بشار الصفة التى أدت الى موته !

وعلى الرغم من التناقض الجوهرى الذى تكشف لنا بالتحليل بين أساس القيم الجمالية التى يقوم عليها نقد أبى الطاهر التجيبى البرقى وبين ما أصبحنا نؤمن به من أسس ونسعى الى تحقيقه من قيم جمالية مستمدة من النقد الحديث فلا نستطيع أن نجحد قيمة الكتاب فى تفجيره الكثير من القضايا النقدية الأدبية واثارة التساؤلات حولها وفى عرضه الكثير من النماذج الجيدة من الصور الشعرية المتقاربة واتاحة الفرصة للموازنة الدقيقة بينها التى تمكن من شحذ الحاسة النقدية وصقل الذوق الأدبى •

الهوامش

(١) من أوضح الأمثلة على ذلك قصيدته التى مدح بها عمر بن هبيرة والتى مطلعها :

جفا وده فازورا أو مل صاحبه

أورد جامع الديوان انه جاء بالأبيات ١ ـ ٢ ١٢ ـ ١٣ ـ ١٦ ، من ٢٠ ـ ٣٠ ، ٣٧ من كتاب معاهد التنصيص ١ ـ ١٤٢ ، من المحاضرات ٢ ـ ٥٦ ، البيت ٣ وفى المختار ٧٥ الأبيات ٣ ـ ٤ ـ ٥ وفى القالى ٢ ـ ٢٣٤ ، البيتان ٦ ـ ١٠ المغيرة ابن حيناء وهما فى المختار ٢٨٢ لابن الزبرقان ابن بدر ٠ ومن الموشى ١٩ الأبيات ٦ ـ ١٠ ـ ١٢ ـ ١٦ ومن ديوان المتلمس ٥٧ البيت ٧ وفى المحاضرات ٢ ـ ٣ البيت ٨ ومن غرر الخصائص ٢٧٢ الأبيات ١٢ ـ ١٣ ـ ١٤ ـ ١٦ وهى حماسة ابن الشجرى ١٤٣ الأبيات ١٢ ـ ١٣ ـ ١٦ ـ ١١ ٠

وفى الطبقات ٤ ـ ٥ الأبيات ١ ـ ٢ ـ ٤١ ـ ٤٢ ١٧ ـ ١٨ ـ ٧ ـ ١٢ ـ ١٣ ـ ١٦ ـ ٤٣ ـ ٤٥ ـ ٣٠ ـ ٢٣ ـ ٢٤ ـ ٤٤ ٠ فهذه خمسة وأربعون بيتا ٠ وفى الديوان التونسى ١ ـ ٣٠٦ لهذه القصيدة خمسة وثمانون بيتا ٠ ثم يعلق العلوى بقوله : فمن أبيات مجموعتى توجد اثنان وعشرون بيتا فى الديوان وهى ١ ـ ٢ ـ ١٧ ـ ١٨ ـ ٧ ـ ١٢ ـ ١٣ ـ ١٦ ـ ٣٨ ـ ٤٠ ـ ٢١ ـ ٣٠ ـ ٢٣ ـ ٢٤ ـ ٣٧ ـ ٢٥ ـ ٢٦ ـ ٢٧ ـ ٢٨ ـ ٢٩ ـ ٣١ ـ ٣٢ والبواقى من مجموعتى فلا توجد فيه وهى ٣ ـ ٤ ـ ٥ ـ ٦ ـ ٨ ـ ٩ ـ ١٠ وأما البيتان ٦ ، ١٠ المنسوبان الى غير بشار فى القالى والمختار فمعزوان فى الموشى الى بشار وعليه اعتمدت ٠ فأما أمر الترتيب بين الأبيات فقد كان صعبا جدا لأجل اختلاف كثير وتشتت كبير فى المآخذ فوضعت الترتيب بينها بمراعاة المعنى مهما أمكن ٠ انظر ديوان بشار جمع العلوى ص ٤٢ ، ٤٣ ط دار الثقافة بيروت ١٩٨٣ وهى المستخدمة فى البحث ٠

(٢) انظر المختار ٦٤ ـ ٩٥ ـ ٩٦ ـ ٩٧ ـ ١٧٥ ـ ٢٣١ ٠

(٣) انظر نفسه ٧٨ ـ ٩٠ ـ ١٦٠ ـ ٢٥٢ ـ ٢٥٨ ـ ٢٦٣ ٠

(٤) نفسه ص ٢٣١ ٠

(٥) نفسه ص ٨ ٠

(٦) وقد تناثرت تعبيراته الشديدة الايحاز الدالة على ذلك فى ١٢ ـ ٢٣ ـ ٣٣ ـ ٣٥ ـ ٦٢ ـ ٧٨ ـ ١١٥ ـ ١١٦ ـ ١١٨ ـ ١٤٩ ـ ١٦٤ ـ ١٨٦ ـ ٢٣٩ ـ ٢٤٦ ٠

(٧) نفسه ص ٧ ٠

(٨) نفسه ص ١١٨ ٠

(٩) نفسه ٢٠٦ ـ ٢٣٧ ٠

(١٠) نفسه ١٥٥ ٠

(١١) طبقات الشعراء ص ٤٦٢ ٠

(١٢) المختار ص ١٦٤ ٠

(١٣) الديوان ص ١٥١ طبعة العلوى ٠

(١٤) المختار ص ٢٤٥ ٠

(١٥) طبقات الشعراء المحدثين لابن المعتز ص ٢٤ ط ٠ دار المعارف

(١٦) المختار ص ١٨٧ ٠

(١٧) نفسه ص ٢٠٨ ٠

(١٨) الذخيرة جـ ١ ص ٢٠٣ نقلا عن تاريخ النقد الأدبى عند العرب د٠ احسان عباس ٠

(١٩) العمدة ٢ : ١٨٥ ص ١٩٠٧ ٠

(٢٠) طبقات الشعراء المحدثين ص ٢٣ ٠

(٢١) الموشح ٢٥٠ السلفية ١٣٤٣هـ ٠

(٢٢) العمدة من ١ : ٥٨ ٠

(٢٣) المختار ص ٨١ ٠

(٢٤) نفسه ص ٨٤ ٠

(٢٥) نفسه ص ١٩ .

(٢٦) نفسه ص ٢٦ .

(٢٧) البيان والتبيين ج ١ : ١٥٠ .

(٢٨) دلائل الاعجاز ص ٤٠ .

(٢٩) الصورة والبناء الشعرى ص ٢٢ ط . دار المعارف ص ٨١ .

(٣٠) نفسه ص ٣١ .

(٣١) وقد أشار الى ذلك الدكتور احمد كمال زكى فى الفصل الذى عقده عن بشار وشاعريته من كتابه (الحياة الأدبية فى البصرة الى نهاية القرن الثانى الهجرى) ص ٥١٥ وما بعدها دار الفكر بدمشق ١٩٦١ .

(٣٢) العصر العباسى الأول ص ٢٠٧ دار المعارف بمصر ط ٦ .